ســـــلافان

محنة الفردية في الأدب المعاصر (١)

للأستاذ شكري محمد عياد

لا أعرف كاتباً صور محنة الفردية في هذا العصر كما صورها جورج ديهامل . ولك أن تقول: محنة الفردية ، أو محنة الفرد حسبما يحلو لك من رغبة في التجريد الفلسفي ، أو التخصيص الإنساني .. وأنت مصيب على الحالين ، فهي محنة يعانيها الأفراد المثقفون اليوم ، لا في فرنسا وحدها بل في كل بلد مسته الحضارة الصناعية والإنتاج بالجملة . ومصدر هذه المحنة إحساس هؤلاء المثقفين ذوي الذكاء اللامع أو الإحساس المرهف أو الخيال الوثاب بأن هذا المجتمع الحديث لم يعد محتاجاً إلى ذكائهم اللامع ولا إلى إحساسهم المرهف ولا إلى خيالهم الوثاب ، بل لعله ينظر إلى هذه الأمور

(١) مقدمة لقصة « اعتراف منتصف الليل » لجورج ديهامل — ترجمة عربية تظهر قريباً .

فإن كل شيء من مراح الشباب ونشاطه يذكره بشبابه الذي ينطوي وروحه التي تخمد ؛ وأنه ليحس وهو بعد في الرابعة والثلاثين كأن بينه وبين الشباب أمداً بعيداً .

وجلس غير بعيد يترقب ويغالب ما في نفسه من حسرة ، وجاءته سونيا تمشي على استحياء وقد حان وقت الرقص فقالت : ألا ترقص الآن ؟ فأجابها وهو يخفي همه بابتسامة : إني اليوم أكبر سناً من أن أفعل ذلك . .

وقد جعل باله في تلك الليلة إلى سونيا ، يدور بعينيه إلى حيث تكون ، وكانت سونيا تقابل نظراته بنظراتها وكأنما تقول له إنها تدرك ما في نفسه ، وكان يحمر وجهها في صورة ملحوظة كلما دنت منه .

ولحظت ذلك عينا لبزا فأفاقت منها زمام أعصابها وقالت لأختها الصغرى ، بعد الحفلة وهي تجهش : إن سونيا لتحاول أن تأخذ مني الكونت . . ألم ترى ذلك ؟ إن مسلكها وإن عينيها وإن رغبتها في أن تنفرد به ، كل أولئك الآن يبدو جلياً . . .

(البقية في العدد القادم) محمود الخفيف

التي كانت تعدها الإنسانية من قبل ميزات نظرة الشك والارتياب لأنها أصبحت تعد في دنيا العمل عوائق ومعطلات . وهم يلاقون من ذلك عناء غير قليل ، حتى ليضطرون إلى إحدى اثنتين : إما أن يستبدلوا بذواتهم الحساسة ذواتاً أخرى أشبه بالآلة في انتظامها ودقتها ، وأكثر انطباقاً على ما يتطلبه المجتمع الحديث ، وإما أن ينسوا أنهم أفراد ، ويلقوا بأنفسهم إلقاء في جيش الساخطين على هذا المجتمع ، المدين المدة لتغييره وفق ما يرونه الحق والصواب. وهم على الحالين لا يستطيعون الاحتفاظ بفرديتهم ، ولا تحقيق ذواتهم ، وقلما ينجون من هذا الفلق الذي ينوشهم من كل جانب ، وقلما يصلون إلى حالة من السلام النفسي الذي ينشدونه . وأكثرهم يتطوون على أنفسهم ، ويختبرون إحساساتهم ، ويطعمون أحلامهم وآلامهم ، وربما وجدوا في الألم لذة أكبر ، لأنه لا يلوح لهم بأشياء مستحيلة ، ولا يعرضهم لخيبة قاسية .

هذه الفرقة من الناس ، إذاً ، ظاهرة بارزة في الحياة الإنسانية لعصرنا الحاضر ، يعنى بها علماء الاجتماع ، وعلماء النفس ، والفلاسفة ، والأخلاقيون ، والأدباء ، والفنانون . ومما يزيد عنايتهم بها أن هذا الفريق من الناس هم الجمهور الأكبر من قراء الأدب والفلسفة ، وأهل الفكر ، ومتذوق الفن . فكأن رجال الفكر والفن إذ يعالجون مشاكل هذا الفريق من الناس إنما يعالجون مشاكلهم هم أنفسهم في نطاق أوسع ، وكأن هذا الجمهور إذ يطالع ما يكتبه له الادباء والمفكرون إنما يطلع على مشاكله الخاصة ، وما يقدمون لها من حلول .

كتب جورج ديهامل سلسلة من خمس قصص تدور كلها حول محنة الفردية في العصر الحديث ، أي حول التنافر بين الفرد ونفسه ، وبين الفرد ومجتمعه . وابتدع في هذه شخصية « سلافان » ، وهي شخصية لا تقل حياة ولا صدقاً ولا عمقاً عن شخصية « هملت » أو « دون كيشوت » . هي شخصية ذلك المثقف المرهف الحس الذي يلفظه المجتمع الحاضر ، وتخنقه أوضاع الحياة النافهة المادية . على أن ديهامل لا يتخذ بطله من أولئك المثقفين ذوي الثقافة العالية المنظمة ، ولا من أولئك المفكرين السحابيين الذين يعيشون في أبراج عاجية ، وإنما هو رجل من عامة الشعب ، لم ينل ما اصطلح الناس على تسميته

افة العالية ولا الثقافة الثانوية ، ولكنه قرأ كثيراً وفكر يراً .. يقول لصديق : « إنني فقير ، وقد كنت فقيراً دائماً ، ست كما يدرس الفقراء ، أعني أنني درست دراسة فقيرة . وقد ن ذلك وبخاصة في السن التي يتألم فيها المرء لمثل هذه الأمور . خذت أثقف نفسي بنفسي ، وعلى قدر استطاعتي ، فأنا أعلم م أكثر مما يعلمه غالبية البورجوازيين في مثل سني . ولكن مع أني لم أتعلم هذه الأشياء بطريقة منظمة ، كما تقول . ومن ' يعدني الناس مثقفاً ، وأصدقك القول إنني مستنى العدوى أفكار الناس عني ، فأصبحت أشك أنا أيضاً في ثقافتي . إنها ة طيبة ، لا تخلو من رسوخ وغنى ، ولكنها ليست ثقافة سيلة » . لا ضير ! إنني مثابر على القراءة .

وهو يقضي سحابة نهاره في بعض تلك المكاتب التي تؤوي ات أو مئات من طبقته ، يؤدون أعمالا تافهة . وهو مشغوف سيقى يعالج النفخ بالناي ، ولكنه يقول عن نفسه : « والأمر أنني لنقص الدربة والدراية والدرس أوقع بطريقة عاجزة نية قطعاً أحسها إحساساً طيباً ؛ إذ ينبغي أن أقول – لأكون ' في الحكم على نفسي – إني مشغوف بالموسيقى ، وإني أدين أنبل مشاعري . ولكني حين أجاهد آلتي لا يبدو على أنني شيئاً مما أوقعه ، على حين أن أورين مثلا – وهو ينفخ ناي أيضاً – أورين هذا الذي لا يفهم شيئاً من الموسيقى ، كن له أصابع متمرنة ، يخيل إلى من يسمعه أنه مشبوب دان » .

وقد تسأل : لماذا جعل ديهامل بطله مثقفاً عامياً وفناناً اً ، ولم يختره رجلا ممتازاً في ثقافته أو فنه ؟ ألا يكون في الصورة الأخيرة أصدق تمثيلا لمشكلة المثقفين في هذا العصر؟ كنني أذكرك بأمرين اثنين : أولهما أن ديهامل لا يعالج مشكلة ين الممتازين وحدهم ، ولا مشكلة هؤلاء المثقفين الممتازين ، خاص ، بل مشكلة كل من يتغلب فيهم جانبا الفكر جدان على جانب العمل ، وطبيعي ألا يبلغ هؤلاء جميعاً رتبة رية . والأمر الثاني أن القصة والأدب على العموم قد اتجها ة شعبية منذ ظهر المذهب الواقعي في الأدب واتخذ موضوعاته لحياة العادية ، حياة الناس العاديين . لم يبق الأدب تصويراً لحياة الأبطال وصراعهم ، بل أخذ أشخاصه من زحمة الحياة العادية التي تعج بصنوف المآسي والمساخر . ولعل هذا هو الأثر الخالد المذهب الواقعي في التراث الأدبي الإنساني ، فما أظنه قد أصبح في استطاعة الأدب في حاضره أو مستقبله أن يترفع عن مشاكل جماهير الناس مهما تكن طبقتهم أو ثقافتهم أو نحلتهم ، ولا أن ينتزع العواطف الإنسانية من مجالها الطبيعي ، ليضعها في إطار من العظمة المصنوعة . وقد ظهر المذهب الطبيعي وعميده زولا بعد المذهب الواقعي ، فزاد هذا الاتجاه بالأدب نحو الشعب قوة ووضوحا . فديهامل محافظ إذاً على تراث الأدب الفرنسي الخالد ، وهو في الوقت ذاته دقيق الإحساس بالمشكلة التي يعالجها حين يختار بطله نكرة من النكرات ، أو كما يقول هذا البطل عن نفسه :

« رجلا لا يختلف في شيء عما ألفه الناس ، رجلا يشبه كل الرجال إلى حد مخيف ! »

ظهرت قصتنا Confession de Minuit — وهي الأولى في مجموعة سلافان — سنة ١٩٢٠ ، ثم تلاها « رجلان » Deux Hommes سنة ١٩٢٤ ، و « يوميات سلافان » Journal de Salavin سنة ١٩٢٦ ، و « نادي ليونيه » le Club des lyonnais سنة ١٩٢٩ ، وأخيراً « كما هو » Tel qu'en lui méme سنة ١٩٣٢ . حلل ديهامل في القصة الأولى عناصر التناقض بين الفرد ومجتمعه ، وبين واقع الفرد وآماله ، وبين أفكاره وأعماله . صور ذلك كله منعكساً على ذهن سلافان فهو لا يقص أحداثاً ، بل أبكاراً بلغت من قوتها وتمكنها مبلغ الأحداث ؛ فهي أحداث بالنسبة لصاحبها ، وهي مغامرات حقة تماسك أنفاسك وأنت تقرؤها ... أحداث هذه القصة لا تعدو أن سلافان يفصل من عمله على أثر حادثة يعدها الناس حقاً منه وشذوذاً ، ويراها هو عملا ضروريا يرد إليه ثقته بأنه انسان يعيش بين أناس . وليس بعد ذلك إلا البطالة والتشرد والفاقة ، وأحلام الحرمان ، وأوهام القلب الوحيد .

وفي القصة التالية « رجلان » نرى سلافان الصديق ... نراه في ضوء تلك الصلة النفسية العميقة التي تكشف من أسرار النفوس ما لا تكشفه الأفكار ولا الأحلام ولا الأوهام .